خرائب قلعة كركبن كما تبدو في الوقت الحاضر

من تحت وكادوا يأخذونه منهم لو لم يتسلح هو الآخر وتحرش بهم ولم يرتدعوا الا بعد ان قبض اليه قنصل دمشق السير ريم برايت فساعدته الحكومة بالمال فاشترى مخطوطات حماه الى متحفه الذي يسمى باسمه الآن في لندن

وقد أثارت تلك المكتشفات مسئلة الخطاب عند علماء الآثار فأخذوا هم يتحمسون لحل رموزها وتعيين لغتها فذاعت شهرتها وتشوقت الى مسامع المستر سايس قنصل بريطانيا في حلب اذ ذاك فهب يستقصي مصدرها منتبهاً عن أمثالها فاقتاده حسن حظه الى زيارة قصبة جرابلس الواقع على ضفة الفرات الغربية شمالي مدينة حلب وعلى بعد ١١٩ كيلو متراً منها فرقف في بحة قلعته الغربية الأطراف على كثير من أمثال هذه الخطوطات منقوشة على احجار سود تتخلل الانقاض المبعثرة تحت الردم فتساءل عما عسى ان تكون تلك الاطلال البالية التي تتألف حجارها المنحتة على أبدع ما يكون من الصنعة والاتقان في تلك الآونة ان الأستاذ سايس الذي كتب عن هذه المخطوطات حماه المنقلة منذ بداية عام ١٨٧٦ عزاها الى الحثيين فحدى ذلك بالمستر سكين الى التفرس ان تكون تلك الاطلال الدارسة منطوية على خرائب مدينة كركيش احدى عواصم الحثيين الواقعة على ضفة الفرات كما تشير اليها نصوص الفراعنة القدماء فطار صيت هذا الاكتشاف الخطير وسرعان ما أيدت صحته علماء الآثار فنهت الأذهان الى هذه الخطوطات الحثية وتوغل البحث عنها في انحاء سوريا وآسيا الصغرى كافة . فظهر للباحثين آثار كثيرة على مثالها من عند اطلال كركيش الى ازمير وفي وادي الحليس منطقة ملاطيه وارضروم فأخذت تتسابق البعثات الاثرية الى هذه البلاد وتشمرت عن ساعد الجد منقبة عن عاديات تلك الدولة العظيمة التي جهلها التاريخ زمناً طويلاً

وقد بدأت اول بعثة انكليزية بحفريات منتظمة في كركيش سنة ١٨٧٦ م فدامت اعمالها اربع سنوات ثم استأنفتها في سنة ١٩١٢م بمعاونة المستر (السر آلان) لنرد رولي والداعية المعروف الكولونل لورنس وقد كان من هواة الآثار بيد ان الحرب العظمى حالت دون اتمام حفرياتها على انهُ ما كادت تحط هذه الحرب اوزارها حتى واصلت تلك البعثة اعمالها من دون لورنس الذي شغلتهُ عن الآثار شواغل فكانت المكتشفات خصبة وافرة من مخطوطات ونقوش وتماثيل واصنام فنقلت برمتها الى المتحف البريطاني ولم يبق لسوء حظنا الاثر منها بين ايدينا يصلح للدراسة اللهم غير تلك الاركان الحجرية الضخمة التي سلبت معظم نقوشها وطمست معالم فنها

وكذلك عملت بعثة المانية عام ١٨٨٨ م في خرائب زنجيرلي الواقعة في شمالي غربي كركيش فوقفت فيها على آثار حثية كثيرة توزعت بين متاحف استانبول وبرلين

ثم عقبتها حفريات عديدة كان معظمها في آسيا الصغرى فنقلت آثارها المهمة الى متاحف اوربا من غير ان ندري بها نخص منها بالذكر التنقيبات التي شرع بها مسيو شانتر الفرنسي عام ١٨٩٤

في قرية بوغازكوي الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومتراً من شرقي أنقره في قرية هرزفا الكائنة على مقربة منها وقد اشتهرت حفريات بوغازكوي التي قام بها بعثة ألمانية في سنة ١٩٠٦ م من اكتشاف خطير بعد سلسلة الاكتشافات الأثرية إذ توصل العلماء الأثري هوغو فنكلر بالتنقيب في تلول تلك القرية الأسيوية المجهولة إلى حصر التنقيب عن آثار حاتوشا عاصمة الحثيين القديمة وقد عثر في هيكل الآلهة تشوب على مكتبة كبيرة تضم نحواً من عشرين ألف لوحة من الطين المشوي محفوظة بالنظم المسمارية كانت مصدر معلوماتنا القيمة عن الحضارة الحثية لأن معظمها وجد مكتوباً باللغة الأكادية السامية ما سهل معه تفسير بعض نصوصه ومن أهم ما عثر عليه بين هذه الألواح نسخة المعاهدة المعقودة في سنة ١٢٧٨ ق.م. بين الفرعون رعمسيس الثاني والملك حاتوشيل الحثي مكتوبة باللغة الأكادية وكان قد سبق وأكتشفت ترجمتها المصرية في حفريات تل العمارنة

وقد التفت بعثة انكليزية إثر ذلك الاكتشاف الخطير ونبشت أطلال سانجي كوزي القائمة على مقربة من قرية بوغازكوي في سنة ١٩٠٨ م فتوفقت إلى العثور على آثار حضارة عريقة ترقى إلى أقدم عهود الحثيين كما أن اكتشاف كركميش أهاب بالعلامة الأثري المسيو تورد رامجان الفرنسي إلى اجراء حفريات بجنوبي تلك العاصمة في ناحية كانت تدعى تل احرم عرفت بتل برسيب قائمة على ضفة الفرات اليسرى فاكتشفت فيها خلال سنوات ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ كتابات ونقوشاً وأصناماً حثية تحت طبقة من انقاض قصور اشورية وآرامية رائعة بضخامتها ورسومها الملونة استدل منها على احتلال هذا التل من قبل الدول المذكورة تباعاً مع تعاقب الايام

***

ويجدر بنا ان نشير كذلك إلى الحفريات غير الناجزة التي اجراها مسيو هروزني في كول تيه قرب القيصرية عام ١٩٢٧ فأبانت آثار فجر العصور الحثية ولا يفوتنا ان نلمع إلى تنقيبات بعثة شيكاغو منذ عام ١٩٢٧ على رواي التي شهر الواقعة على مسافة ٧٠ كيلو متراً من شرقي بوغازكوي والى اعمال مسيو دولاپورت في تلول آزهويوك عام ١٩٣١ وفي أرسلان تيه عام ١٩٣٢ تلك التي كشفت عن خرائب قصور حثية وعدة نقوش تمثل ملقوساً دينية وضم ملك حثي مطبوع بجسم فرس اشوري وآنية من خزار وخزف تمت بصناعتها إلى الحثيين القدماء

وقد خدم الاتفاق بعض المنقبين في قلعة حلب وجوارها وفي مدينتي حمص وحماه وفي معظم البلاد التركية بالعثور على آثار حثية تحت طبقات كثيفة من انقاض حضارات أحدث تاريخاً دلّت على أبطال تلك المدن العامرة في القدم

وما برح معول التنقيب ينبش التلول المنتشرة في سهول آسيا الصغرى وسوريا الشمالية باحثاً عن

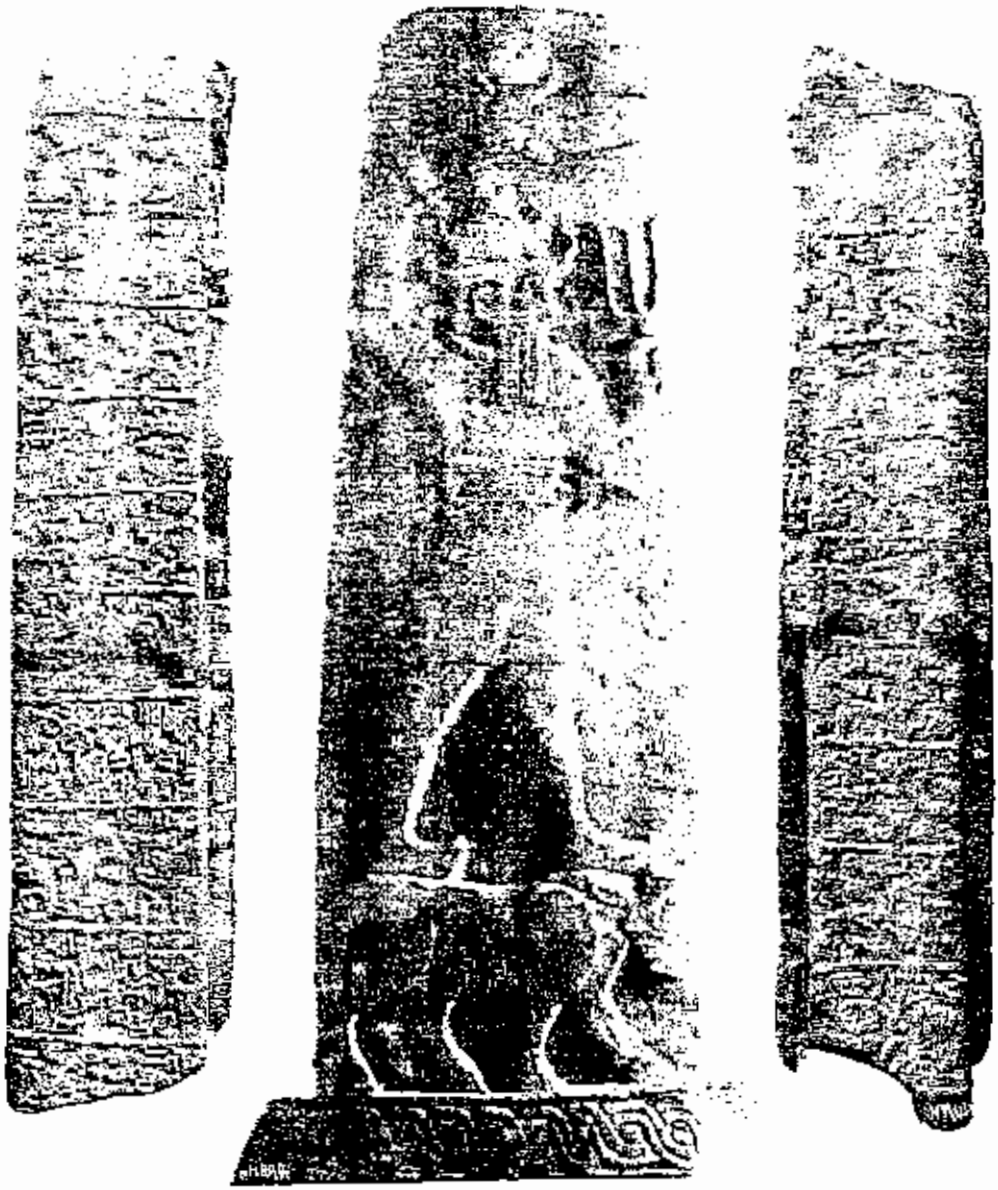

في الوسط : نصب حجري كبير من الحجر الرملي الازرق ١٫٣٠ × ٠٫٩٨ × ٠٫٨٥ اكتشف في حفريات تل برسيب سنة ١٩٢٨ وهو الآن في متحف سط يمثل بحشوبي اله الصواعق يلبسه الحجي المعروف واقفا على الثور الذي يرمز حواره الى هنيز العاصفة وقد شهر بيده اليمنى فأسا وامسك باليسرى رمز الصاعقة الملك الشعب والنصب متوج بقرص شمسي داخل هلال مزدان بجناحين على شكل النقوش المصرية. وفي اسفل النصب خمل حزوني الشكل كثيرا ما حرعى النقوش الحثية . وفي الطرفين ملكان عليهما كتابة هيروغليفية بديعة ترجع الى القرن الثاني عشر ق م وقد وجدت مع النصب المذكور في تل برسيب وارسلت الى متحف انقرة

آثار تلك الدولة العظيمة التي قدر لها ان تحارب الفراعنة وتنتصر عليهم في بعض الاحيان وتحتل بلادهم وتحكمهم بسلطانها

وقد اتجهت في السنين الاخيرة جهود علماء الآثار لاكتشاف ما تبقى من مدن الحثيين فأرسلت جامعة شيكاغو بعثة منظمة الى قرية جيطن حيرزيه الواقعة على طريق حلب الاسكندرونة تبحث بين خرائبها المنثورة تحت الردم عن مدينة كركميش احدى حواضر الحثيين القديمة في سورية الشمالية كما شرعت بعثات أخرى في تنقيب تل اريحا وبعض الاطلال المجاورة لانطاكية وسوبدية فرق الينا مؤخراً بما عثور هذه البعثات على آثار حثية قيمة ولكن تشريعة الحرب بقاءها مدة قيد الدرس والتمحيص ونحن لا نبعد ان تحسر مئات الثلوج التي تغطي سهول العمق عن آثار جثية المستعمرات الحثية المندثرة فيتسنى للعلماء ان يستطلعوا منها بعض اسرار التاريخ الغامضة التي ما برح جوابها معلقاً على نتائج البحث والتنقيب

عند ما نهض العلم من باطن الثرى ببقايا تلك الصناعات العديدة التي لم تكن تعرف نسبتها اتصرف علماء الآثار الى مراجعة الاسفار المقدسة فوصلوا بعضها الى نتائج تلقي الغموض عن وجه تاريخ الحثيين القديم ومن اهم النصوص التي ساعدت على التعرف الى تلك الشعوب ومنازلها ما جاء في الفصل الاول من سفر يشوع بن نون من أن الرب عاهده على ان يجعل تخوم ملكه من البرية ولبنان الى الفرات جميع ارض الحثيين ، ثم ما نقرأ في الفصل الثالث من سفر الخروج من ان الاسرائيل بعدما انقذ شعبه من نير عبودية المصريين اسكنه ارضاً واسعة طيبة تدر لبناً وعسلاً كانت موطن الكنعانيين والحثيين والاموريين

ومما ورد ايضاً في الفصل الثالث عشر من سفر العدد ان موسى عندما نزل مع جماعته في برية فاران أوفد رؤساء اسباط اسرائيل ليجتسوا الارض من برية صين الى يحوب عند مدخل مدينة حماه فوجدوا تلك المناطق خصبة وشعبها قوياً ومدنها حصينة عظيمة وقد كانت تقيم العمالقة بجنوبها والحثيون واليبوسيون والاموريون يقطنون الجبل والكنعانيون متبسطون في سواحل البحر وقد انتشروا حتى عدوة الاردن

وهنالك شهادات أخرى في الكتاب تتصل بموضوعنا منها ما يخبرنا به سفر التكوين من ان ابراهيم اضطر عند وفاة زوجته سارو في قرية حبرون الكنعانية الى ان يشتري من عفرون بن صوحر الحثي مغارة المكفيلة وحقلها بأربعمائة مثقال فضة ليجعلها مدفناً لعائلته

وان عيسو بن اسحاق لما بلغ من العمر اربعين سنة اتخذ يهوديت بنت بئري الحثي وبسمة بنت ايلون الحثي امرأتين له ويلوح ان النساء الحثيات كن جميلات يستهوين حتى عظماء اسرائيل كما تثبت ذلك اسطورة في سفر الملوك الثاني تروي انا علاقة غير شرعية للنبي داود مع امرأة

تسمى بقتاين زوجة اردي حثي . على ان هذه الاسانيد وجدها لم تكن كافية لنطاء الآثار من نجوم وضع تاريخ حثيين لان يخصوا اليه ما ثر مدوناتهم المنقاة من الالواح الحيروغليفية المصرية ومن المكتشفة الاكادية والاشورية وما ينسر من وموزه من خيروطات الحثيين المنسوبة

وقد ورد ذكر البلاد الحثية لاول مرة من ايامنا في الواح تل العمارنة المكتشفة سنة ١٨٨٧ في عاصمة مصر القديمة وهذه الالواح هي رسائل متبادلة بين فراعنة النيل وملوك آسيا وبعض الامراء السوريين الذين كانوا خاضعين لسلطة مصر في القرن الرابع عشر والخامس عشر ق.م. ثم عثر في سنة ١٩٠٦ على لوح آخر مكتوب باللغة الاكادية وهو كان اقدم اثر تاريخي عرفناه على الاطلاق يشير الى حملة عسكرية قام بها سارغون ملك اكاده الحارب العظيم في سنة ٢٧٢٥ ق.م. على امارات آسيا الصغرى وتوغل في جبال النطة ويعني بها موطن الحثيين القدماء وقد اكتشفت في بوغاز كوي ترجمة هذا الفتح باللغة الحثية النيزية كما ظهر له في خرائب اشور نسخة مبتورة . وفي لوح حثي آخر مخطوط بالقلم المسماري يشيد الملك نارام سان من سلالة ملوك اكاده بالنصر الذي احرزه على سبعة عشر ملكاً اسيويًّا حاربوه متحدين منهم پابا ملك البلاد الحثية وهو اول من عرفناه من سلالة الملوك الحثيين وقد ورد ذكره مراراً في الواح اخرى مكتشفة في كركوك مما يدل على شيوع اسمه في كل انحاء آسيا الصغرى . ومن الملوك الحثيين القدماء الذين تواتر ذكر اعمالهم في تلك النصوص العهيدة زيباني ملك بلدة كانص التي كشف النقاب عن انقاضها في كول تپه قرب القيصرية ويتسبنكي ملك بلدة غصورا التي يحال ان موقعها الجنوبي غربي انقره في الخرائب المعروفة بكادور قلعه سي وهنالك اسماء ملوك واعلام عديدة توصلنا الى معرفتهم وسنورد ذكرهم تباعاً فيما يلي مقروناً باتمامهم الخطيرة

***

بالاستناد الى الادلة والبينات التي توافرت لدى علماء الآثار اجمعوا على ان الحثيين انحدروا من عرق آري طغى وجاله على آسيا الصغرى في قديم الزمان فأقاموا اولاً بجبال الاماتوس المعروفة بجبال الفكام ثم تكاثروا فتدافعوا الى اودية الجبل وتبسطوا في سهولها على انهم تفرقوا الى فصيلتين سكنت الاولى في الكاپادوك وفي سائر انحاء آسيا الصغرى ثم انتشرت بكرور الايام من الفرات الى حلب فحماه فقادش ورحلت الفصيلة الثانية الى ابعد من ذلك فاستوطنت معظم بلاد كنعان من قبل عهد ابراهيم اي في اواخر القرن الحادي والعشرين ق . م . بدليل حادثة شراء ابي المؤمنين مدفن عائلته في حبرون من عفرون الحثي وقد عرفت الاولى بالفصيلة الشمالية والاخرى بالجنوبية بيد ان هنالك من يدحض وجود علاقة ثمة بين الفصيلتين في غير تشابه الاسم . فيبقى حل الغموض في هذه النقطة المبهمة متوقفاً على مستقبل الاكتشافات الاثرية

على انه يظهر ان كل من اطلق عليه الاسم الحثي كان قوي التكيف ذا مرونة في مواقفه الحربية اذ يخبرنا الكتاب ان الشعوب الحثية الحربية قاومت استيلاء الاسرائيليين على ارض كنعان مقاومة عنيفة وحاربتهم حروباً شديدة ولكنها ما غلبت على امرها ما تم ابتلاع بقاياها مع بني اسرائيل وتوحدت العائلات بعد زواجهم فاضمحلت تحت رايتهم واندمجوا في سائر شعوبهم

اما في الشمال فقد قضوا بصورتهم ثم العناصر السامية التي اجتاحوا بلادها وشادوا فيها مملكة عظيمة منذ اوائل الالف الثانية ق م صمدت تحت لوائها تدريجاً كل الشعوب الآسيوية المهيدة التي كانت منتشرة في آسيا الصغرى وفي السهول الممتدة ما بين الفرات والعاصي وان من اقدم الآثار التي تدلنا على سطوتهم لوح محفوظ بالقلم المسماري أشار اليه العالم الأثري السيد هروزني يتضمن أسطورة فتوحاتهم الأولى في آسيا الصغرى بين سنة ١٩٥٠ وسنة ٢٠٠٠ ق.م. ومفادها ان بتحانا ملك بلاد الكوثر استولى على مدينة نازا التي سكنها الحثيون القدماء واشتقت منها تسمية لغتهم القديمة بالنيزية وان خيتا بن بتحانا ألحق بالمملكة التي استعمرها والده مملكتي زلبا وحتي وكبّر مدينة نازا ونصب عند بابها مسلة تذكارية لانتصاراته الكبرى استمدّ فيها العون على تأييد ملكه من اله الذرى والصواعق . بيد ان حاتوشا عاصمة مملكة حتي المغلوبة لم تخلد الى الخضوع والسكينة فناوأ مليكها المدعو بحوشتي جيوش الملك خيتا الظافر تكللوا بمؤتمر تكيل ونظموا مقاتم مملكته الى معابد نازا وكوثر فكان بينها الكثير من الذهب والفضة مع مجموعة من أغرب الحيوانات المتوحشة

فيستفاد مما تقدّم انهُ كان لدولة الحثيين القدماء اربع حواضر في آسيا الصغرى منذ الالف الثانية قبل المسيح وهي كوثر ونازا وزلبا وحاتوشا التي سرّنا ذكرها على انهُ لم يتسنّ للاثريين بعد تعيين امكنة هذه الحواضر الاربع بيد انهُ يغلب على الظن ان تكون خرائب الحاضرة الاولى هي المعروفة اليوم باسم كادور قلعه سي غربي انقره . اما نازا في المرجح انها مطمورة تحت تلول مرادلي هويوك على بعد ١٥٠ كيلو متراً من كادور قلعه سي كما انهُ ينبغي البحث عن الحاضرة الثالثة زلبا في قلب آسيا الصغرى بجوار منطقة الكابادوك بالنظر الى تواتر ذكرها في كتاباتهم ويلوح انها كانت من اعظم الممالك القديمة بالنظر الى ان الملك خيتا عند استيلائه عليها لقب نفسه بالملك الاعظم . اما حاتوشا فهي العاصمة الوحيدة التي كشف ليومنا عن خرائبها في بوغازكوي جنوبي ولاية سيفوب التركية ويفهم ان هنالك ايضاً مدينة عامرة مسماة عارينا كانت تحت حماية آلهة الشمس وقد ورد ذكرها في بعض الواح بوغازكوي مما يدل على انها كانت على مقربة منها وقد تكون خرائب هويوك الواقعة على بعد ٢٨ كيلو متراً من شمالي شرقي تلك العاصمة

[البحث بقية]